الفصل الخامس

النظرية المعرفية
لفن العمارة الإسلامية

النظرية المعرفية
لفن العمارة الإسلامية

مقدمة

تعد العمارة نواة أولى، ومظهراً بارزاً لنشوء الحضارة الإسلامية وتطوراتها السياسية والاجتماعية والثقافية وغيرها، فضلاً عن كونها شاهداً تاريخياً على التحولات الفكرية، التي شهدتها الدول والمجتمعات الإسلامية، فقد تأثر تاريخ العمارة الإسلامية -إلى حدٍ ما- بالكثير من التقلبات السياسية والاجتماعية للدول الإسلامية المتعاقبة والمتداخلة.

ومع ذلك، يمكن القول إنّ فلسفة العمارة الإسلامية ظلت طبيعية المكان والدور، في السياق التاريخي للحضارة الإسلامية بوصفها محوراً جوهرياً لمنحنى هذه الحضارة الإبداعي، ولتحولاتها الفكرية، التي قد تصب -أحياناً- في خدمة التاريخ السياسي المتعلق بالملك والتفاخر والخلود في الذاكرة الإنسانية -قدر الإمكان- أكثر من بنائها المرتقب للتاريخ المعرفي المتعلق بالنهضة المعمارية الكبيرة التي تمثلت، ليس في قيام عمائر إسلامية متميزة في شتى بقاع العالم فحسب، بل وكذلك في قيام المجمعات العمرانية الكبيرة والواسعة والشاملة لمختلف المنشآت المعمارية

كالمسجد والمكتبة والزاوية والمدرسة وملحقاتها الخدمية، فضلاً عن تطور الصناعات الفنية؛ الخشبية والمعدنية والزجاجية وغيرها، المتعلقة بالعمارة الإسلامية. وهذا ما يفتح الباب على الدوافع المختلفة وراء هذه النهضة المعمارية الواسعة، التي قلَّ نظيرها في الفنون والحضارات الإنسانية الأخرى. وإذ يظل العامل الديني هو أول مثل لتلك الدوافع وأقواها، فإن الدوافع الأخرى قد تتمثل -على سبيل المثال- في التنافس السياسي بين الدول من جهة، والحكام في الدولة الواحدة من جهة أخرى، والتصوف وآفاقه المعرفية ومتطلباته السلوكية، والأوقاف المختلفة في تنظيماتها وفي أهدافها الخيرية.

(العمارة الإسلامية)

لقد كان (المسجد) أول المنشآت المعمارية الإسلامية، وأهمها أثراً ودوراً، في التحولات الفكرية الحادثة، منذ وقت مبكر من نشأة الدولة الإسلامية وتطورها الحضاري وتوسعها الجغرافي، وامتداداتها الثقافية بين المجتمعات والشعوب؛ إذ قام العمران الإسلامي في نشوء المدن وتخطيطها على مركزية (المسجد) في الموقع والمكانة والدور الإداري للمدينة، فضلاً عن رمزيته الإسلامية الواضحة، التي كان ذوو السلطان والملك والمال والجاه وغيرهم يحرصون على العناية ببناء المساجد وعمارتها الباذخة في القوام وفي الجمال.

ولا شك في أن المسجد هو أفضل ما يمثل العمارة الإسلامية وتحولاتها الفكرية في مجالات الحياة والحضارة والفن، ولذلك فهو دليل أصالتها الفلسفية والتصميمية والإنشائية التي مهما حاول بعض المستشرقين المساس بجوهر هذه الأصالة الإسلامية في العمارة والعمران، تظل تحولاتها الفكرية التي رافقت قيام المساجد الجامعة من بساطتها الشكلية الأولى حتى فخامتها النادرة في العمارة، والكبيرة في المساحة، والباذخة في الجمال الفني الباهر، شاهداً تاريخياً حياً على تلك الأصالة وإبداعيتها المتواصلة في التحول الفكري والفني والوظيفي للمنشأة المعمارية الإسلامية بين المسجد والقصر، ودار الحكم والمدرسة والرباط والزاوية، والتكية والخان والسبيل والثكنة والقلعة، وغير ذلك من أنواع المنشآت وأشكالها ووظائفها، التي تعكس جذرية تلك التحولات وعمقها في البنية المعرفية والاجتماعية

للفكر الإسلامي نحو التخصص في التصنيفات المعرفية والتنظيمات الحضارية بين الدين والتصوف والعلم والصحة والسياسة والاقتصاد والاجتماع، وغير ذلك من التحولات الفكرية التي أنتجت ما بين القرن العاشر -الثاني عشر الهجري/السادس عشر- الثامن عشر الميلادي، ظاهرة (الكليات Kulliyyat) المعمارية في النسيج العمراني للمدينة الإسلامية.

والـ (كليه Kulliyye) مصطلح عثماني يطلق على المجمع المعماري المتعدد الأغراض والوظائف والخدمات multifunctional complex، ويتألف عادة من مبانٍ متباينة ومنفصلة مثل: مدرسة، ومكتبة، وتكية، ونزل، ومطبخ، وحمام، وغير ذلك من المنشآت المعمارية. ولكنها جميعاً تقع داخل سور كبير، وتحيط بالمسجد الذي هو العمارة المركزية أو الرئيسة في الـ (كُلّيه).[1]

---

(1) **HE ENCYCLOPEDIA OF ISLAM** , LEIDEN: BRILL , 1986 , Vol. 5 , p 366.

أنشأ العثمانيون العديد من هذه المجمعات المعمارية الضخمة، وكان أول هذه (الكليات) ومن أكبرها على سبيل المثال لا الحصر: (كلية) السلطان محمد الأول (824-805 هـ/1421-1402 م) افتتحت عام 874 هـ/1470 م، وكان يطلق على هذا المجمع اسم (يشيل كلية) أي المجمع الأخضر، نسبة إلى الجامع الأخضر الذي شيده (معمار حاجي إيواز) في بورصه بين عامي 824-822 هـ/-1419 1424 م. انظر:

- إحسان أوغلي، أكمل الدين (إشراف وتقديم). **الدولة العثمانية تاريخ وحضارة**، إستانبول: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، ط1، 1999م، ج2، ص696.

وتعد هذه الظاهرة المعمارية الإسلامية الجديدة تعبيراً بليغاً عن تطور كبير في التحولات الفكرية للعمارة الإسلامية، بل وللعمارة الإنسانية بعامة؛ إذ لا يمكن فهم هذا النمط المعماري الكلياني إلا على أساس مدلولات الترابط الإسلامي المحكم بين الإيمان والمعرفة والقوة، وعلاقاتها الفكرية المتشابكة في الفكر المعماري الإسلامي، الذي وجّه العمارة الإسلامية في هذه المرحلة نحو السعة والفخامة والجمال والقوة، وكل ما يعبر عن عظمة الإسلام ويدل على منعته.[1]

وفي سياق هذه التحولات، نشأت الظاهرة المعرفية للعمارة الإسلامية بوصفها علماً أو فناً أو صناعة من العلوم والفنون والصنائع الثقافية الإسلامية، وتطورت نواحيها الاجتماعية والاقتصادية بوصفها صنفاً من أصناف العمل التخصصية الجامعة بين الصنعة والمهنة والفن، في إطار ما يمكن أن نسميه: (الوظائف المعمارية) كالمهندس، والمعمار، والبناء، والخيّام، والنقاش، وغيرها من الوظائف المتعلقة بالبناء والتعمير والتشييد، التي كانت تعد في جملة (الأصناف) ونقاباتها المهنية بوجود العديد من المعماريين

(1) يقدم العديد من الباحثين في تاريخ العمارة الإسلامية وفلسفتها مسجد (قوة الإسلام) ومنارته المشهورة (منار قطب)، الذي بني بين 586 –592 هـ/ 1191–1196 م؛ في دلهي بالهند مثالاً حياً على ذلك. ينظر على سبيل المثال لا الحصر: – الرباط، ناصر. **ثقافة البناء وبناء الثقافة**، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ط1، 2002م، ص25.

والبنائيــن وغيرهم من ذوي الوظائف الأخرى المتعلقة بالإشــراف والادارة والرقابــة والخدمــة في هــذا المجال، كما هــو الحال في الوظيفة التي كان صاحبها يســمى: (شاد العمائر).[1] ولكن الوظيفة الأشــهر في هذا المجال وفي غيره مــن مجالات العمران المختلفة هي (المحتسب)، الذي يمكن أن نسميه بالمفهوم المعاصر: الرقيب الفني على سوق العمل والإنتاج المتعلق بالتخطيط العمراني، وبناء المســاكن والمنافع الإنســانية في المجتمع الإســلامي.

ومن الجدير بالإشارة في هذا السياق أن أغلب أدب العمارة الإسلامية وتحولاتها الفكرية، من المؤلفات والكتب المتخصصة في الهندسة المعمارية -الاجتماعية، أو ما يمكن أن نسميه: علم اجتماع العمارة الإسلامية، كان قد وضعه أمثال هؤلاء من ذوي الوظائف المعمارية والعمرانية، الذين أولى بعضهم هذا الموضوع عناية كبيرة في التأليف والتصنيف، مع أن جوانب كثيرة من المعرفة المعمارية الإسلامية قد ظلت -مثل كثير من معارف الإبداع وتقنياته الإسلامية- حبيسة ما كان يعرف بـ (سر المهنة)، الذي أخفى كثيراً من معلوماتها الفلسفية والعلمية والتعليمية والاقتصادية، فضلاً عن هندستها النظرية وفنونها التطبيقية؛ إذ يمكن القول إنّ (فقه

(1) هو أشبه ما يكون بالملاحظ أو المشرف على العمائر السلطانية من قصور ومنازل وأسوار وغير ذلك. ويكون عادة أمير عشرة أشخاص ويبدو أن هذه الوظيفة كانت من الأهمية بحيث أن صاحبها قد يذكر أحياناً إلى جانب اسم السلطان في (الأفاريز) التي هي الكتابات التذكارية على هذه العمائر. انظر:
- القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، مرجع سابق، ج4، ص22.

النوازل) قام في جانب كبير منه على حل المشكلات الاجتماعية الناجمة عن البناء، أو المتعلقة به.

وقد وضع فقهاء العمارة والبناء كثيراً من الكتب في المسائل المعمارية والعمرانية، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: (القضاء في البنيان) للفقيه عبد الله بن عبد الحكم (ت 191 هـ/816م)، وكتاب (الجدار) لعيسى بن دينار الأندلسي (ت 212 هـ/827م)، وكتاب (البنيان والأشجار والمياه والأنهار) لعبد الملك بن حبيب الأندلسي (ت 238 هـ/853م). ويأتي كتاب (الجدار) لعيسى التطيلي (ت 386 هـ/ 996م) من أوسع الكتب التي أُلّفت في هذا المجال، فقد "اشتمل على واحد وخمسين مبحثاً، كلها في البنيان ومتعلقاته"[1] التي تشمل كل إنشاء وتعمير؛ فضلاً عن كثير من مصطلحات العمارة الإسلامية في الأندلس والمغرب بخاصة. وكذلك (الإعلام بنوازل الأحكام) لأبي الأصبغ عيسى بن سهل الأسدي الأندلسي (ت 486 هـ/1093م)، وغير ذلك من الكتب والمؤلفات التي كانت تدور على مسائل البناء والتعمير والتخطيط والتنظيم المدني، كالاشتراك والجوار والارتفاق، واستعمال العقار والكراء والترميم والصيانة، والإجارة والعيون والآبار والطواحين والأفران، والمرور والطرق والتشجير، وغير ذلك من المسائل التي نجدها في عدد من الكتب التي ألفها أو شرحها هؤلاء الفقهاء والبناءون والمحتسبون؛ مثل كتاب المرجي

(1) قاري، لطف الله. "جولة مع الكتب التراثية المطبوعة في فقه العمران"، **الحياة**، عدد8، رمضان 1425هـ/نوفمبر 2004م، ص192.

الثقفي (القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي) الذي توالى على شرحه والزيادة فيه كل من الإمام محمد بن علي الدامغاني الكبير البغدادي (ت 478 هـ /1085م)، والشيخ عمر بن عبد العزيز بن مازة البخاري (ت 536 هـ/1141م)، وابن الرامي البناء المحتسب (محمد بن إبراهيم اللخمي، ت 750 هـ/1350م)، والحافظ قاسم السودوبي (ت 879 هـ/1474م)، وغيرهم وصولاً إلى الشيخ أبي حامد المقدسي الشافعي (ت 888هـ/ 1483م) الذي ألّف رسالة بعنوان (الفوائد النفيسة الباهرة، في بيان حكم شوارع القاهرة، في مذاهب الأئمة الزاهرة).

إنّ هذه التحولات قد كوّنت معرفة معمارية مميزة وعريضة، يمكن تصنيفها إلى المجالات الآتية:

أولاً: فلسفة العمارة الإسلامية، التي تتألف معرفياً من ثلاثية: الرؤية، والمفهوم، والمقصد، فالرؤية الإسلامية إلى العمارة بوصفها التكليف الرباني للإنسان في خلافته على الأرض، هي الأمانة التي أودعها الله تعالى في الإنسان بوصفه هو الذي (يعمر) المكان بالايمان والعمل والبناء: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: 18]، فتنشأ بذلك الرؤية المعمارية الإسلامية القائمة، بشكل كلي وأساس، على مفهوم المكان الحق المناسب كلياً للمكين الإنساني، بغض النظر عن طبيعة عمارته وشكلها ومادتها.

ومن هنا يمكن القول إن مقولة "شرف المكان بالمكين"[1] تختصر جانباً كبيراً من الفلسفة المعمارية الإسلامية وجوهرها الروحي والمادي القائم على القيمة وتعلقها الديني والوظيفي بالإنسان؛ إذ إن المفهوم الإسلامي للعمارة لايقف عند حدود التعريف بالمكان والشكل والبناء فحسب، بل يتجاوز ذلك كله إلى روح المكان وحيويته المناسبة لطبيعة الوجود الإنساني وغاية معيشته في هذا المكان أو ذاك، ولذلك اشترط العلماء المسلمون التناسب الحياتي ببعديه النفسي والوظيفي بين الإنسان والمكان، وعلى هذا الأساس، شبَّه بعضهم البيت بالقميص؛ أي اللباس الذي يرتديه الإنسان.[2]

(شرف المكان بالمكين)

(1) لم نقف على صاحب هذه المقولة وزمانها الأول، ولكنها تبدو أثراً شائعاً في الثقافة الصوفية العثمانية؛ إذ درج الخطاطون العثمانيون على كتابتها في لوحات للتعليق والتبرك، بشكل واسع ومتواتر.

(2) ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم. **عيون الأخبار**، تونس: دار الكتاب العربي، ج1، ص56.

ويمكن القول كذلك إن المعنى القيم لمقولة شرف المكان بالمكين يتجذر -إلى حد ما- في أعماق ثقافة القيم النبيلة للمجتمع العربي قبل الإسلام؛ وفكره المعماري المستند إلى الفطرة البدوية في (هندسة الخيمة)[1] ومقاصدها البنائية والعمرانية.[2]

---

(1) ابن رسول، الملك المظفر يوسف بن عمر. **المخترع في فنون من الصنع**، تحقيق: محمد عيسى صالحية، الكويت: مؤسسة الشراع، ط1، 1998م، ص28.

(2) هناك أربعة قطاعات عمرانية رئيسة هي: المركز، وقطاع السكن، وقطاع السوق، وقطاع المعبد.

وكانت هذه القطاعات لعرب ما قبل الاسلام تنضوي تحت التوزيعات العمرانية المعروفة بأسماء: الأحياء، والعمارات، والعروض. وهناك أكثر من ثمانية أنواع أو أشكال للبيت العربي منذ ما قبل الاسلام؛ منها: الحنتمة، والطراف، والمظلة، والقبة، والقنة، والخباء، وغير ذلك. ويتألف هذا البيت من عناصر أساسية منها: الشقة، والكفاء، والرواق، والعمود، والأوتاد، والأطناب، وغير ذلك. انظر باب في الديار، وباب في البنيان، وباب في الخيم، في:

- الربعي، عيسى بن إبراهيم بن محمد. **كتاب نظام الغريب في اللغة**، بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، د.ت، ص81-87.

ولو عدنا إلى واقع الحال التاريخي للعرب قبل الإسلام لواجهنا كثيراً من الأسئلة الافتراضية عن التفكير المعماري البدوي وتطبيقاته البنائية في ما يمكن أن نطلق عليه فلسفة العمارة البدوية، المتعلقة بأشكال تلك البيوت وتوزيعاتها الحضرية، من حيث الدلالات القيمية والاجتماعية والوظيفية.. المقابلة لفلسفة (عمارة المدينة) التي أطلقها المعمار الايطالي ألدو روسّي Aldo Rossi.

ويمكن أن نكتشف الملامح الأولية لعمارة البداوة العربية في ما كان يعتمده (العوارف) بأحوال الأرض المتقلبة بين الصلاح والفساد، وطبيعة القاطنين المتحولة في المزاج، من مبادىء العمران وشروطه، التي منها: تخير المواضع، وتقدير المنازل، وتوفر الغذاء، وسماحة الهواء، وفسحة المرور، واتساع السلوك، واعتزال الوباء، وتهذيب الأحلام،=

ويمكن القول أخيراً؛ وليس آخراً؛ إن أدب (السياسة الشرعية) يمثل -إلى حد كبير- مصدراً أساسياً مهماً من المصادر المعرفية والمقاصدية لفلسفة العمارة الإسلامية ومفهومها الاجتماعي القائم على العلاقة العضوية الحميمة بين العمارة والعدل.[1]

ثانياً: النظرية المعمارية الإسلامية في التصميم والبناء والوظيفة والدلالة التاريخية. ويمكن القول -إلى حدٍ ما- إن (التدوير والتربيع) هما جوهر الفكر المعماري الإسلامي المنطلق -في الأساس- من مبدأ (التدوير) المفتوح الشكل والمعنى على الكون الدائري المطلق في الكمال الهندسي الفطري، ومن مبدأ (التربيع) الدال على الارتفاع في المكان والثبات في الشكل والسمو في القيمة، المتمثلة في

= ونقاء القرائح، وصفاء الألوان، وغير ذلك من مبادىء التخطيط العمراني البدوي وشروطه العربية في "تخير الأماكن وإرتياد المواطن" انظر:
- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين. **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: الشركة العالمية للكتاب، ط1، 1989م، ج2، ص99-96. ويذهب بعض دارسي الفنون الإسلامية إلى أن التصميم الداخلي لأغلب المساجد العثمانية ذات القباب يعيد إلى الأذهان الفضاءات المغلقة لخيمة البدو الأتراك والمغول في آسيا الوسطى. انظر:
- بيركهارت، **تأثير اللغة العربية على الفنون البصرية في الإسلام**، مرجع سابق، ص110.

(1) ينظر على سبيل المثال لا الحصر:
- ابن الربيع، شهاب الدين أحمد بن محمد. **سلوك المالك في تدبير الممالك**، تحقيق: حامد ربيع عبد الله، القاهرة : مؤسسة دار الشعب ، ط1، 1980.
- ابن الأزرق، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن علي. **بدائع السلك في طبائع الملك**، تحقيق: علي سامي النشار، بغداد، وزارة الاعلام، 1977.

(الكعبة المشرفة)، التي كانت ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران:96].

وربما كان التربيع والتدوير جوهر المفهوم والتصميم في العمارة الإسلامية ومنشآتها الأولى كقبة الصخرة المشرفة -على سبيل المثال لا الحصر- ذات الشكل الثماني، المستوحى تصميمه الإسلامي الخالص من القرآن الكريم في شرف الصخرة مكاناً، ومعراج الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وسلم إلى عرش ربه العظيم الذي يحمله ﴿ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة:17] مكيناً رمزياً يتجلى في ما وراء الشكل الثماني النابع من العلاقات الهندسية بين المربع والدائرة.

ثالثاً: الهندسة المعمارية الإسلامية، التي تقوم معرفياً على نظريات التصميم ورسوماته التخطيطية المتعلقة بالبناء؛ إذ يعد (علم عقود الأبنية) فرعاً من علم الهندسة، "يتعرف به أوضاع الأبنية وكيفية إحكامها، وبناء الحصون المحكمة، وتنفيذ المنازل المهمة، والقناطر المشيدة، وأمثالها، وأحوال كيفية شق الأنهار، وتقنية القنوات، وإنباط المياه ونقلها من الأغوار إلى الأنجاد."[1]

وكانت الأبنية تنشأ على أساس من مخططات تصميمية يتم رسمها هندسياً في مصورات تخيلية لشكل المبنى، تماماً كما في المخططات الهندسية الحديثة (Sketch)؛ إذ يذكر الجاحظ مثلاً بأن

(1) طاشكبري زادة، أحمد بن مصطفى. **مفتاح السعادة ومصباح السيادة**، تحقيق: كامل بكري، وعبد الوهاب أبو النور، القاهرة: دار الكتب الحديثة، 1968م، ج1، ص375.

الرقوق كانت "تتخذ لصور العقارات ونموذجات النقوش."[1] ويذكر المقريزي (ت 845 هـ/م 1442م) بأن مهندس جامع أحمد بن طولون (220 ـ 270 هـ/835–883م)؛ و" يقال إن اسمه: سعيد بن كاتب،"[2] كان قد صور عمله على رق قبل تنفيذه.[3]

وكانت (الرسومات الهندسية للعمارة الإسلامية)[4] وغير المعمارية مما يتعلق بصناعة الآلات الميكانيكية (الساعات مثلاً)، والفلكية (الإسطرلاب مثلاً)، والتجارب والأبحاث العملية في علوم الكيمياء والأحياء والطب وغيرها، من أبرز التحولات الفكرية للفنون الإسلامية في المعرفة الإسلامية؛ إذ كان (الرسم الهندسي) منهجاً علمياً لإنشاء الأبنية وتنفيذ الأعمال في الحضارة الإسلامية، فضلاً عن التراث الفكري والعلمي العربي الإسلامي، فقد كان هناك كثير من مؤلفات الهندسة الإسلامية العامة، والمتخصصة في العمارة الإسلامية، التي منها على سبيل المثال لا الحصر:[5] كتاب المهندس

(1) الجاحظ، عمر بن بحر. **رسائل الجاحظ**، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة: دار المعارف، 1979م، ج3، ص314.

(2) تيمور باشا، أحمد. **المهندسون في العصر الإسلامي**، القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، د.ت، ص21.

(3) البلوي، محمد بن عبد الله. **سيرة أحمد بن طولون**، تحقيق: محمد كرد علي، دمشق: المكتبة العربية، 1939م، ص182.

(4) عبد الوهاب، حسن. "الرسومات الهندسية للعمارة الإسلامية"، **مجلة سومر**، بغداد، ج1، ج2، عدد14، 1958م، ص 44.

(5) قاري، لطف الله. **إضاءة زوايا جديدة للتقنية العربية الإسلامية**، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، 1996م، ص11.

أبو الوفا البوزجاني (ت 387 هـ/997م): (ما يحتاج إليه الصانع من علم الهندسة)، وكتاب القاضي كامي محمد أفندي بن أحمد الأدرنوي (ت 1136 هـ/1723م): (رياض القاسمين) الذي يعد من أوسع كتب المعرفة المعمارية وفقه العمران وأجمعها في التراث الإسلامي؛ إذ "يتناول هذا الكتاب مسائل تحديد العقار وحساب مساحته وقسمته إلى حصص وتوزيعها على مستحقيها، والجوار والاشتراك، والمسيل، والمرور والشارع، وأحكام المحتسب وضمان الصناع من البنائين والنجارين وغيرهم، وأحكام الأوقاف، والمنازعات، والأراضي والأشجار والمياه، والبيع والهبة والمزارعة والمساقاة، وفيما يتعلق بأملاك أهل الذمة من الكنائس وغيرها والقسامة فيها. ومن الجدير بالذكر هنا: أن هذا الكتاب يمتاز باستخدام الأشكال التوضيحية التي كان بعضها مخططات، أو ما يسمى بلغة المعماريين اليوم: كروكي، للوحدات السكنية والطرق التي تتحدث عن حق المرور فيها، وبعضها الآخر عبارة عن رسوم الآلات المستخدمة في الوزن والقياس والتنظيم؛ مثل (آلة الكونيا) التي هي ميزان لمعرفة استقامة الجدار عمودياً، فضلاً عن الحسابات الرياضية والهندسية، وما يتعلق بها من وحدات الذراع والمساحة والأشكال الهندسية وغيرها من المفاهيم والمصطلحات المتعلقة بالعمارة والبنيان."[1]

رابعاً: صنعة البناء الإسلامية، التي يعدها ابن خلدون (ت 808 هـ/ 1406م) من جملة "الصنائع الإنسانية الضرورية" التي تقوم رسومها

(1) قاري، **جولة مع الكتب التراثية المطبوعة في فقه العمران**، مرجع سابق، ص192.

على "حسن الترتيب وحسن الوضع في البناء"، "وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل" وغير ذلك من مظاهر العمران؛ إذ تعد "صناعة البناء أول صنائع العمران الحضري وأقدمها."[1]

وكان يطلق على العارفين بالبناء وأحواله، أسماء عدة، على حسب خبرتهم العلمية والمهنية، منها: المهندسون، والصناع، والفَعَلَة. ويعد (البنّاء) من أشهر أسماء العاملين في هذه الصناعة وأكثرها تعريفاً بالمختصين بها. ويبدو هذا المصطلح عاماً وخاصاً في إطلاقه على (مراتب البنّائين) من (العامل أو الخادم) ثم (الصانع)، ثم (القُلفة)، ثم (المعلم)، ثم (أمين البناء).[2] وكان يطلق أحياناً على كبير البنائين: الأستاذ، وعلى مهندس البناء: المقدر، والعارف أو العريف.

وكان المهندس سليمان النيقرو، الذي قام ببناء منارة جامع الزيتونة عام 1312 هـ/ 1894 م، قد ألف كتاباً بعنوان: (بلوغ المنى في قواعد الرِّم والبِنا)، ورتبه على أبواب وفصول بلغت (38) باباً "في معرفة حفر الأساس وبنائه، معرفة صحيحه وعديمه. في معرفة بناء الجدران المشتركة وغير المشتركة. في بناء الحمامات وما اشتملت عليه في بناء الجوامع والمساجد. في الميضأة. في بناء المدارس. في بناء الكوش. في بناء الأبراج والأسوار. في القناطر والجسور.

(1) ابن خلدون، **المقدمة**، مرجع سابق، ص376.

(2) الحشايشي، محمد بن عثمان. **العادات والتقاليد التونسية**، تحقيق: الجيلاني بن الحاج علي، تونس: دار سراس للنشر، 1994م، ص33.

في بناء الأقواس والأدماس. في بناء القباب. في بناء الدور والقصور وما اشتملت عليه. في بناء الآبار. في بناء الدرج. في معرفة تركيب الحروجات على اختلاف أنواعها. في بناء الإسطبلات لربط الدواب. في بناء القنوات والخنادق. في ترتيب برج الطابية. في بناء الجوابي وبئر الناعورة. في بناء قصاع الخصص وتجرية الماء لها. في معرفة الحنايا المجلوب عليها الماء. في تركيب مقصات الخشب لتسقيف البيوت والغرف. في معرفة ميزان الطرقات وتضريسها. في معرفة الفرق بين الصانع والقلفة والمعلم والأمين. في معرفة القسمة بين الشركاء في المساحات. في معرفة تطبيق الحدود في العقار وغيره. في معرفة الصحيح والعادم من الجدران وغيرها. في معرفة الضرر من أين نشأ. في الحكم على نفي الضرر. في معرفة القيمة في البناءات المحكمة. في معرفة ربط الأَسِرَّة والصحيح منها والمخل. في معرفة جر الأثقال ورفعها من غير تعب. في معرفة الصحيح والساقط في الأشغال الممتدة. في معرفة قواعد التخطيط والاستواء. في نبذة من علم الحساب وتكسير المساحة وقيسها."[1]

خامساً: فقه العمارة الإسلامية، بوصفه جانباً من جوانب (فقه النوازل) الذي ينظم العلاقات المعمارية في البيئة الاجتماعية على مبادىء وقواعد أساسية مستمدة من مصادر التشريع الإسلامي الأساسية، فعلى سبيل المثال لا الحصر، استنبط الفقهاء عدة قواعد

(1) المرجع السابق، ص33.

معمارية من الحديث النبوي الشريف: (لا ضرر ولا ضرار).[1] وقد قسم بعض الفقهاء[2] البنايات وفقاً لأحكام الشرع إلى: البناء الواجب كبناء المساجد، والبناء المندوب كبناء الأسواق، والبناء المباح كبناء المساكن، والبناء المحظور كبناء الخمّارات.

ومن الأهمية العلمية في هذا المقام القول إن التحولات الفكرية للعمارة الإسلامية قد تأثرت كثيراً بالتجاذبات الفقهية بين أولئك المتشددين في الالتزام بالشريعة في البناء البسيط في قوامه والزاهد في شكله، كما هو الحال في منشآت دولة الموحدين (515 ـ 667 هـ/1121 ـ 1269م) في المغرب والأندلس؛ التي تأثرت هندستها كثيراً بالفقه المالكي وأولئك المنفتحين في السلوك الصوفي المندفع نحو ما يمكن أن نسميه (العمارة الرمزية)، التي تقوم على التفسير الخاص لمقولة (شرف المكان بالمكين) الذي يتمحور حول معنى (البركة) وتأثيراتها الروحية المختلفة، فقامت هذه العمارة على منشآت صوفية خاصة مثل: الرباط، والخانقاه، والزاوية، والدويرة، والتكية، والخلوة، والتربة، والمقام، والمشهد، وغير ذلك من التنويعات المعمارية للمكان الصوفي.[3]

(1) أكبر، جميل عبد القادر. **عمارة الأرض في الإسلام**، عمان: دار البشير، ط2، 1995م، ص199.

(2) نقلاً عن:

– عزب، خالد. **الحجر والصولجان؛ السياسة والعمارة الإسلامية**، القاهرة: دار الشروق، د.ت، ص123.

(3) حنش، إدهام محمد. "المكان الصوفي؛ أصوله التاريخية والشرعية"، **مجلة الرسالة الإسلامية**، بغداد، عدد272، 2002م، ص8.

سادساً: أعلام العمارة الإسلامية، الذين كان أغلبهم ولا يزالون جنوداً مجهولين في المعركة الحضارية للبناء والعمران الإسلامي، التي غالباً ما تنسب بطولاتها التاريخية إلى الحكام والمتنفذين وميسوري الحال والمال. وعلى الرغم من ذلك، وصلتنا أخبار كثير من مهندسي العمارة الإسلامية وبنّائيها المبدعين، الذين نذكر منهم هنا على سبيل المثال لا الحصر: طلق بن علي التميمي الحنفي، من أهل اليمامة، وكان أحد العارفين بالعمارة الطينية، فساهم في بناء المسجد النبوي الشريف. وقد أثنى الرسول الكريم ﷺ على عمل هذا البنّاء بقوله: "إن هذا الحنفي لصاحب طين."[1] وكذلك: رجاء بن حيوة الكندي (ت 112 هـ/730م) المهندس المشرف على بناء قبة الصخرة وعمارتها الأولى في عهد عبد الملك بن مروان[2] (26 ـ 86 هـ/646 ـ 705م). وقد عمل أحمد تيمور باشا على تتبع العديد من هؤلاء المهندسين المعماريين الذين أدرجهم في معجمه الخاص بأعلام المهندسين في الإسلام؛ مثل:[3]

1 – عبد الله بن محرز، والحجاج بن يوسف، وعمران بن الوضاح، وشهاب بن كثير: المهندسون الأربعة الذين قسم الخليفة العباسي المنصور (93 ـ 158 هـ/712 ـ 775م) أرباض

(1) ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النمري. **الدرر في اختصار المغازي والسير**، تحقيق: شوقي ضيف، القاهرة: دار المعارف، 1403هـ، ص88.

(2) ابن كثير، عماد الدين إسماعيل بن عمر الدمشقي. **البداية والنهاية**، بيروت: مكتبة المعارف، د.ت، ج8، ص280.

(3) تيمور باشا، **المهندسون في العصر الإسلامي**، مرجع سابق، ص13، 45، 51، 55.

بغداد إلى أرباع بينهم عند تخطيط المدينة المدورة وبنائها.

2 - إبراهيم بن غنائم بن سعيد المهندس (ت بعد 668 هـ/ 1270م) الذي بنى للملك الظاهر بيبرس البندقداري أغلب أبنيته الشامية من القصور وغيرها في دمشق.

3 - المعلم أحمد بن أحمد بن محمد بن علي بن عبد الله المعروف بالطولوني (ت 802 هـ/ 1400م) كبير مهندسي الأبنية السلطانية في عهد السلطان المملوكي الظاهر برقوق، الذي انتدبه لهندسة عمارة المسجد الحرام، فسافر إلى مكة ومات فيها بعد الفراغ من العمل.

4 - عبد الرحيم بن علي بن محمد بن عمر الزين المعروف بابن البناء (ت 891 هـ/1486م): أحد المهندسين المماليك الذين شاركوا في عمارة الحرم المكي الشريف، وقد لقب بمهندس الحرم.

5 - أبو بكر البناء الذي دفع له ابن طولون "ألف دينار سوى الخلع وغيرها من المركوب "، لنجاحه في بناء ميناء عكا. وقد وصف حفيده المؤرخ المقدسي (ت 380 هـ/990م) مؤلف كتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) صفة البناء في الماء.[1]

ولكن ما يجدر التوقف عنده في هذا السياق هو بعض أشهر

(1) المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبو بكر البناء البشاري. **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ليدن: مطبعة بريل، 1877م، ص162-163.

المعماريين المنسوبين إلى ما بين القرن العاشر و الثاني عشر الهجري/السادس عشر والثامن عشر الميلادي، ونبدأ بالمهندس المعماري الكبير:[1] سنان (ت 996 هـ/1588م) الذي هندس وبنى وأشرف على أكثر من (200) منشأة معمارية عثمانية -على الأقل- بين جامع ومدرسة وقنطرة، وغير ذلك، خلال عهود أربعة سلاطين عثمانيين هم: سليم الأول (917 ـ 926 هـ/1512 ـ 1520م)، وسليمان القانوني (926 ـ 973 هـ/1520 ـ 1566م)، وسليم الثاني (974 ـ 982 هـ/1566 ـ 1574م)، ومراد الثالث (982 ـ 1003 هـ/1574 ـ 1595م). ولا بد من الوقوف ختاماً عند كل من أستاذ عيسى، ورومي خان، ورانمال: المهندسين الثلاثة الذين تعاونوا على هندسة وتصميم وتخطيط وعمل مبنى وقبة وحديقة (تاج محل) الذي أمر ببنائه السلطان المغولي المسلم شاه جهان (ت 1076 هـ/1666م)؛ تكريماً لزوجته ممتاز محل (ت 1040 هـ/1631م).[2]

سابعاً: أدب العمارة الإسلامية: وربما أدت هذه الظاهرة المعمارية إلى جعل المرحلة ما بين القرن العاشر والثاني عشر الهجري/السادس عشر والثامن عشر الميلادي حاضنة تاريخية لنشأة الظاهرة المعرفية للعمارة الإسلامية، بوصفها علماً أو فناً أو صناعة من العلوم والفنون والصنائع الثقافية الإسلامية، ولتطور نواحيها الاجتماعية والاقتصادية، بوصفها صنفاً من أصناف العمل التخصصية الجامعة بين الصنعة

(1) NECIPOGLO , Gulru: **The Age of SINAN** , London: REAKTION BOOKS ,2005.

(2) أوكان، برنار. **كنوز الإسلام؛ روائع الفن في العالم الإسلامي**، ترجمة: نورما نابلسي، بيروت: أكاديميا إنترناشيونال، 2009م، ص200.

والمهنة والفن، في إطار ما يمكن أن نسميه الوظائف المعمارية، التي يمكن القول إنّ بعض ذويها من المهندسين المعماريين هم الذين وضعوا أغلب أدبيات العمارة الإسلامية وتحولاتها الفكرية المتعلقة بمعارف الإبداع المعماري وتقنياته الإسلامية في البناء والتشييد، على الرغم من أن جوانب كثيرة من المعرفة المعمارية الإسلامية قد ظلت حبيسة ما كان يعرف بـ (سر المهنة)، الذي أخفى كثيراً من معلوماتها الفلسفية والعلمية والتعليمية والاقتصادية، فضلاً عن هندستها النظرية وفنونها التطبيقية وتحولاتها الفكرية، التي يمكن القول إنها كونّت المعرفة المعمارية الإسلامية على أسس علمية ناضجة من حيث المحتوى، ومتقدمة من حيث المنهج، بما يمكن القول إنها جعلت المرحلة الزمنية الممتدة ما بين القرن العاشر والثاني عشر الهجري/ السادس عشر والثامن عشر الميلادي مهاداً معرفياً لنضج المفاهيم الأساسية للعمارة الإسلامية، وبخاصة منها تلك المتعلقة بالهندسة المعمارية والرسم المعماري والوظائف المعمارية، والأشكال المعمارية والعناصر المعمارية، والمنشآت المعمارية وغير ذلك من جوانب العمارة وموضوعاتها الأساسية.

ومن أوضح هذه المفاهيم والمصطلحات الإسلامية المتعلقة بالهندسة والعمارة والبناء -على سبيل المثال لا الحصر- التخطيط، والقياس، والتسطيح، وهو ما يعرف اليوم بالإسقاط (المساقط) أي رسم أو رفع صورة المنشأ المعماري على سطح ورقي أو غيره مما كان يطلق عليه: لوح الترسيم، والطرح أو النقشة اللذين يقابلان اليوم الرسم الهندسي، وغير ذلك مما يتعلق بالمخططات والرسومات

والخرائط. ويبدو أن هذه المفاهيم وغيرها هي جزء من مواد علمية ضمن "كتب تعليمية في البناء، كان يدرسها المعماريون بإستانبول في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي."[1]

ومن هذه الكتب -على سبيل المثال لا الحصر- كتاب (رسالة معمارية) الذي ألّفه (جعفر أفندي) سنة 1023هـ/ 1614م ليكون معجماً (ثلاثي اللغة: عربي وتركي وفارسي) للمفاهيم والمصطلحات المعمارية التي كانت معروفة في هذه الفترة، إلى جانب كونه كتاباً توثيقياً عن حياة وأعمال المعمار العثماني (محمد أغا)[2] أحد تلامذة المعماري سنان باشا.

ولقد تنوعت أدبيات العمارة الإسلامية في هذه المرحلة ما بين الرسائل الموجزة والكتب الموسعة عن موضوعات هذه العمارة؛ النظرية والعملية، المدعمة أحياناً بالرسومات الهندسية المطلوبة لتنفيذ البناء.

ومن هذه الأدبيات المكتشفة -على سبيل المثال لا الحصر- "كتابان من تأليف النقّاش ساعي مصطفى جلبي، أحدهما بعنوان (تحفة معماران) والآخر (تذكرة بنيان). وهما عن حياة وأعمال المهندس المعماري المشهور سنان، تم تأليفهما سنة 996هـ/ 1558م؛"[3] أي بعد وفاة هذا المعماري.

(1) قاري، **إضاءة زوايا جديدة للتقنية العربية الإسلامية**، مرجع سابق، ص68.

(2) من أشهر أعماله المعمارية: جامع السلطان أحمد الثالث (1115-1149 هـ/1703-1736م) بإستانبول.

(3) قاري، **إضاءة زوايا جديدة للتقنية العربية الإسلامية**، مرجع سابق، ص27.

ونجد بعض أدبيات العمارة الإسلامية المنسوبة تاريخياً إلى المرحلة ما بين القرن العاشر والثاني عشر الهجري/السادس عشر والثامن عشر الميلادي؛ وفنياً إلى المدرسة المغولية/التيمورية (أفغانستان والهند) التي كان يرعاها السلطان ظهير الدين محمد بابر (ت 936 هـ/ 1530م) وأولاده وأحفاده، وبخاصة السلطان المغولي المسلم شاه جهان (ت 1076هـ/ 1666م) الذي كان يدارس ثلاثة من أبرز مهندسيه المعماريين، وهم كل من: أستاذ عيسى، ورومي خان، ورانمال، في التعاون على هندسة وتصميم وتخطيط وعمل مبنى وقبة وحديقة (تاج محل) الذي أمر ببنائه؛ تكريماً لزوجنه ممتاز محل (ت 1040هـ/ 1631م).[1] ومن أشهر كتب هذه المدرسة التي وصلت إلينا مخطوطة (بابر نامه) المكتوبة حوالى عام 1009هـ/ 1600م،[2] وكتاب (آئيني أكبري) الذي ألفه أبو الفضل علامي (ت 1011هـ/ 1602م) في وضع قوانين البناء، وتصوير منجزات السلطان بابر المعمارية. و (هداية قواعد) المكتوب في الهند سنة 1127هـ/ 1715م، وهو من تأليف هداية الله بخاري[3] الذي يبدو أنه كان بوظيفة تسمى (مير معمار) في الدولة التيمورية. ويبدو أن شاغل هذه الوظيفة كان يتولى الإشراف العام على بناء العمارات السلطانية، وربما كانت تعادل وظيفة (شاد العمائر) المملوكية، و (أمين البناء) المغاربية.

---

(1) أوكان، **كنوز الإسلام؛ روائع الفن في العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص200.

(2) عكاشة، ثروت: **موسوعة التصوير الإسلامي**، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 2001م، ص283.

(3) قاري، **إضاءة زوايا جديدة للتقنية العربية الإسلامية**، مرجع سابق، ص187.